# مع

# جار الله "الزمخشري"

### للدكتور عبد العزيز عبده أبو عبد الله

**الزمخشري هو أبو القاسم محمود عمر جار الله ولد بزمخشر ( بلد بخوازم ) وتلقى عن النيسابوري وغيره ثم اربى على من تقدمه وغدا الامام المعلم في كثير من الفنون ، فشدت اليه الرحال ، وكان معتزلي العقيدة ومؤلفاته بين ايدينا تغنينا عن الاشادة بمعارفه • منها في النحو : النموذج والأمالي والمفرد والمؤلف والمفصل ، وعنى العلماء بالمفصل شرحا وتعليقا ، فمن اشهر شروحه شرح ابن يعيش وشرح الأندلسي ، ولما وصل بغداد قاصدا الحج ، احتفى به ابن الشجري ، وتبادلا تحية يجمل بالأدباء تعرفها ، ذكرت في ترجمته في نزهة الألبا ومعجم الأدباء ، وفي ترجمة ابن الشجري في وفيات الأعيان ، وبعد أن جاور حرم مكة قفل الى وطنه فمات به سنة ٥٣٨هـ (١) •**

ونمهد قبل التحدث عن آرائه العلمية في التفسير ، وهل كان ينزع الى المعنى أو الاعراب كصناعة في آرائه النحوية ، نمهد لذلك مشيرين الى وضع عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم ، لأن الزمخشري هو الذي طبقها ، ولأنه لا يصح الحكم على عالم كبير ذي معان بارعة وأفكار نيرة بمثال واحد على أنه انحاز الى جانب الاعراب وأهمل جانب المعنى أو انحاز الى موقف ضعيف بسبب تصحيح الصناعة •

آمن عبد القاهر بنظرية النظم وخصها بكتاب مسهب ملأه بالتقرير والاستشهاد والدفع والموازنة كما عبر عن رأيه بجلاء حين قال :

اعلم أنك اذا رجعت الى نفسك علمت علما لا يعترض الشك أن لانظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك ، هذا مالا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس ، واذا كان كذلك فبنا أن ننظر الى التعليق منها والبناء ، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ، ما معناه وما محصوله ؟ .

واذا نظرنا في ذلك علمنا الا محصول لها غير أن تعمد الى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا أو تعمد الى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر او تتبع الاسم اسما على أن يكون صفة للأول ، او تاكيدا له أو بدلا منه ، او تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا او تمييزا او تتوخى في كلام هو لاثبات معنى أن يصير نفيا او استفهاما أو تمنيا فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك . أو تزيد في فعلين ان تجعل أحدهما شرطا في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك وعلى هذا القياس ) (٢) .

لقد بذل الجرجاني جهد المفكر الألمعي حين تحدث بافاضة واشباع عما يتطلبه الموضوع الحافل من حيث المسند والمسند اليه والتقديم والتأخير والحذف والذكر والوصل والفصل والقصر والاختصاص بحيث أصبح الواضع الحقيقي لما يعرف بعلم ( المعاني ) ولا ننكر أنه اتكأ في بعض ماقال على ما قرره العلماء في علمي النحو والبيان ، ولكنه اتكاء صاحب الألمعية اللاقطة التي تحتفل بالخيوط الدقيقة لتمد أسبابها بخيوط جديدة لاتزال تتوالد بالتجمع والاحتشاد حتى تصبح نسيجا قويا ينسى أصله ولا يكاد يذكر به ، ولن نلقي القول جزافا ولكننا نشهد بصنيع علمين سابقين من أعلام النحو والنقد جالا مجال عبد القاهر في بعض ما اتجه اليه من الحديث وانتفع بهما الجرجاني انتفاعا كان موضع التمهيد لثمر علمي ناضج آتى أكله هذان هما سيبويه النحوي ، صاحب الكتاب ، وابن وهب البلاغي صاحب البرهان الذي نسب لقدامة بن جعفر وطبع تحت عنوان : نقد النثر وهو من قدامة بعيد غريب .

أما سيبويه فقد تحدث عن التقديم والتأخير في خلال حديثه عن حروف العطف كأم أو مايليها من الأفعال والأسماء اذا أريد الاستفهام عن جملة

أو عن اسم وعما يليهما في غير الاستفهام فسلك مسلكا دقيقا لا يتهيأ لغير الراسخين من ذوي الصبر والاحتمال .

وأحيل القارىء على ما جاء في الجزء الأول من الكتاب ابتداء من الصفحة اربعمائة وثمان وستين (٣) خشية الاطالة وكثرة الاستطراد ، أما ابن وهب فقد تحدث عن الحذف والقطع والعطف والتأخير في الصفحات التاسعة والستين والثانية والسبعين والثالثة والسبعين حديثا نظلم مؤلفه كل الظلم اذا قسنا خطراته السريعة بفيض عبد القاهر الزاخر ، ومانريد موازنة ، ولكن الأمناء من مؤرخي العلوم لا ينسون فضل السابق مهما ضؤل ، واذا كان عبد القاهر نحويا في صميم دراساته الأولى فانها النظرة الجادة في ازالة الحوائل القائمة لدينا بين علم المعاني وكتب النحو ، اذ يعد الأول من علوم البلاغة في عرف المتأخرين وقد تعرض له من لا يتعمق مسائل النحو فأتى بخطل كثير .

وقد ألح عبد القاهر على رجوع سر الاعجاز الى مراعاة النظم النحوي وحده ، وكأن هذه المراعاة هي كل شيء مؤكدا أن الاعجاز لا يكون في الكلم المفردة بعيدا عن مسألة النظم كما لا يكون في الفواصل والمقاطع او في الاستعارة والمجاز فلم يبق الا أن يكون على حد تعبيره ـ في النظم والتأليف . !

وماتوجه الزمخشري الى اقتناص فرائد المعاني من التراكيب الا بوحي عبد القاهر وعلى هدى سناه احتذاء الزمخشري احتذاء نشم منه رائحته في كل سطر من سطور الكشاف ، فالذي يقارن صنيع عبد القاهر بصنيع الزمخشري يجد الأول قد رسم الخطة وأعد المثال وبين الطريق ويجد الثاني قد تولى التنفيذ الدقيق لما رسم صاحبه حيث تتبع آيات الكتاب الكريم آية آية ليوضح ماعناه الجرجاني بالنظم القرآني ، وهنا نتعرض الى مسألة هامة فنذكر أن الزمخشري هو أول من أطلق على مباحث النظم : علم المعاني ، وقد تابع السكاكي ( الكشاف ) في ذلك كما يتضح ذلك من مقدمة الكشاف التي نص فيها على أن علمي البيان والمعاني هما من ألزم اللوازم لمن يتعرض للتفسير .. !

لقد تولى الزمخشري تفصيل قضية النظم في تفسير الكشاف فوقف عند آيات الذكر الحكيم جميعها آية آية ليتبين مايتعلق بكل نص قرآني من مسائل المعاني والبيان ، وقد ذكر المؤلف مادعاه الى تفسير القرآن فقال : انه رأى بعض اخوانه من رجال البلاغة والاعتزال يرجعون اليه في تفسير الآيات فيستحسنون غاية الاستحسان مايبرز لهم من مكنونات المعاني ويستطيرون شوقا الى مؤلف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا مقترحين عليه أن يضم

مايعلمه من حقائق التنزيل ، في كتاب فتباطأ واستعفى ، لما يرى عليه أهل الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم فضلا عن أن تترقى الى الكلام المؤسس على المعاني والبيان ، ثم زاد الاستشناع ويدخل بعض الأمراء فضاقت على المستعفي الحيل وعيت به العلل وتفرغ لتفسير كتاب الله ٠٠ !

وفي هذه السطور ما يحدد اتجاه الكشاف : لأن سائليه ، كما قال ، من أفاضل الفئة الناجية العدلية الجامعية بين علم العربية والأصول الدينية ، فهم اذن من رجال الاعتزال الذين يرون في الزمخشري اماما في المذهب الكلامي والمذهب البياني معا فهرعوا اليه ظامئين وقد هاموا بصاحبهم لأنه في الحقل البلاغي يرضى كل دارس من أبناء العربية وفي الحقل الكلامي يقدم اليهم غذاء يشتهونه فرحين ٠

وقد صادف تفسير الكشاف حظوة بالغة لا عند رجال الاعتزال وحدهم بل عند القارئين جميعا من أبناء الاسلام فجعله أهل السنة مصدرا هاما من مصادر التفسير واكتفوا بالتعليق الكاشف على مالا يرتاحون اليه من آراء الاعتزال ٠ وانتشر الكتاب انتشار الضوء يبدد الحنادس في كل مكان ٠

( لقد اشترط صاحب الكشاف في مفسر القرآن أن يكون مسترسل الطبيعة نقادها مشتعل القريحة وقادها يقظان النفس دراكا للمحة وان لطف شأنها منتبها على الرمزة وان خفى مكانها ، لاكزا جاسيا ولا غليظا جافيا ٠ قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف طالما دفع الى مضايقة ووقع في مداحضة ومزالقة وهي شروط تجدد انطباقها لدى الزمخشري اذ رزق حصيلة وافية من الادراك واليقظة والذوق ففتح الله عليه بما برع وجاد ) (٤) ٠

ولا يعنينا في هذا الموضع أن نبين كيف انتصر الزمخشري لآراء الاعتزال فذلك ما يهم في الدرجة الأولى مؤرخي المذاهب الكلامية لا الباحثين عن المعاني المستشفة من الاعراب وانما يهمنا أن نبين كيف تناول الآيات القرآنية تناولا ينسجم مع معتقداته الكلامية انسجاما يراه متفقا مع أسرار القول البياني دون اعتساف ، فالمعتزلة مثلا يجيزون رؤية الله ٠ اذ لو تدل على الرؤية فلابد لمثل الزمخشري أن يفسرها من وجهة نظره الكلامية وهي وجهة تجد في مسائل البيان مايمدها بالقوة فتغدو أمرا يقبل الجدل والاستدلال ٠

وقد تعرضت لهذه النقطة أعني التفسير والتأويل حسب المعتقد الاعتزالي ؛ لأن ذلك يبين ملامح شخصية الزمخشري العلمية منعكسة في تفسيره ، والشخصية العلمية كل لا يتجزأ ، فيها من الفطرة وفيها من الاكتساب ان علما وثقافة أو تجربة وأحداثا وهي على كل حال تكوين معقد أشد تعقيد مركب أيما تركيب ، هذا شأن الشخصية العلمية في ذات نفسها فكيف بالأمر ان حاولنا أن تتضح أمامنا صورة منها في مرآة عمل علمي ؟ .

ان المهمة تصبح أشق وأدق حين تعالج الشخصية العلمية من مؤلف لها علمي ، فلن نستطيع أن نجزىء كلها المركب فنقول هذا الجزء منها أدبي وذاك علمي وثالث ديني وهكذا لأنها ككل ذات عناصر متمازجة مختلطة متحدة ، ولكنا نفترض أن الشخصية العلمية التي تعالج أشبه بالوجه تسلط عليه ريشة الرسام فمرة تبرز عينيه أدق ابراز ومرة تبرز أنفه وثالثة شاربه وهكذا ننتقل بين أجزاء الوجه لا تغادر سمة من سماته أو خصيصة من خصائصه وأجزاء الوجه المصورة بعد مجموعة هي الوجه كله ، وسبيلنا هنا هو سبيل ريشة الرسام فنسلط الضوء مرة على جانب من شخصية الزمخشري العلمية المتعددة الجوانب ومرة أخرى على جانب ثان وثالث وهكذا ، وهذه الجوانب كلها مضمومة بعضها الى بعض ممتزجة بعضها مع بعض هي شخصية الزمخشري العلمية كما عكسها تفسيره الينا ، وشخصية الزمخشري كمعتزلي مفكر جانب غلاب على كل الجوانب الأخرى في تفسير ظاهرة أشد ظهور وتكفينا في ذلك الاشارة مكتفين بمثل واحد في جانب العقيدة التي لا يقبل منها الاستثناء والتي يدل فيها الجزء على الكل .

ونعود بعد هذا الاستطراد الى الحديث عن تفسيره الرؤية بما يوافق مذهبه ! ..

قال تعالى في سورة القيامة « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » مقال الزمخشري (٥) تنظر الى ربها وهذا معنى تقديم المفعول الا ترى الى قوله ( الى ربك يومئذ المستقر ، الى ربك يومئذ المساق ، ألا الى الله تصير الأمور (٦) والى الله المصير (٧) واليه ترجعون (٨) ، عليه توكلت واليه أنيب ) كيف دل منها التقديم على معنى الاختصاص ومعلوم أنهم ينظرون الى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم ، فان المؤمنين نظارة ذلك اليوم ، لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ، يصح معه الاختصاص والذي يصح معه أن يكون من قول الناس

« أنا ناظر الى فلان ناظرا ما يصنع بي ، تريد معنى التوقع والرجاء ومنه قول القائل :

واذا نظرت اليك من ملك
والبحر دونك زدتني نعما

وسمعت مروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأمرون الى مقاتلهم تقول : عيوني ناظرة الى الله واليكم » والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة الا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون الا اياه » (٩) ·

فالزمخشري يحمل النظر على توقع الخبر وانتظار الكرامة ويقول : ان تقديم الجار والمجرور : الى ربها في الآية وأمثالها يدل على الاختصاص واذا كان كل شيء منظورا يوم القيامة فاختصاصه عز وجل وحده حينئذ محمال فلم يبق الا حمل النظر على توقع النجاة والكرامة في يوم تشخص فيه الأبصار ثم يستأنس بشاهد شعري ويقول امرأة مستجدية سمعها بمكة ، ولم ينج المفسر من تعقيب البناء ويكثر ويتعمق فلما نفرت هذه الآية فاه صنع في مصانعتها بالاستدلال على أنه لو كان المراد بالرؤية النظر الحسي لما انحصرت بتقديم المفعول ، لأنها حينئذ غير منحصرة ومايعلم أن المستمتع برؤية جمال وجه الله تعالى لا يصرف عنه طرفه ولا يؤثر عليه غيره ولا يعدل به عز وجل منظورا سواه ، ونحن نشاهد العاشق في الدنيا اذا ظفر برؤية محبوبه لم يصرف عنه لحظة فكيف بمحب الله ! وهو تعليل يصدم تعليلا ويباريه ·

وكذلك قال في سورة المطففين ( كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ) تمثيل للاستخفاف بهم ، وفي سورة يونس : « لننظر كيف تعملون » استعار النظر للعلم المحقق ، وهكذا ، وقد قلنا : ان العادلية قد أعجبوا بتفسيره وبلاغته ؛ لأنه تابع عبد القاهر في نظرية المعاني يقول الزمخشري تعليقا على آية البقرة : « وأولئك هم المفلحون » هم فصل وفائدته الدلالة على أن الوارد بعد خبر لا صفة وتوكيد ، وايجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند اليه دون غيره ، والفائدة الأولى فائدة نحوية خالصة ، أما الفائدتان الثانية والثالثة فتلتقيان مع كلام عبد القاهر في أن ضمير الفصل يفيد تاكيد الاختصاص ويقف الزمخشري عند تعريف كلمة ( المفلحون ) قائلا : ومعنى التعريف في المفلحون : الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين منهم بلغك

أنهم يفلحون في الآخرة أو على أنهم الذين ان حصلت صفة المفلحين وتحققوا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة (١٠) .

وواضح أنه ردد التعريف بين العهد والجنس فهو اما اشارة الى المعهودين بالفلاح واما تعيين لحقيقة الجنس المسمى بالمتقين وهو نفس كلام عبد القاهر في دلائل الاعجاز طبقه الزمخشري على الآية الكريمة ، ويقف في تفسيره كثيرا بازاء التعريف ومعناه فهو مثلا في آية الفاتحة ( الحمد لله ) يقول : هو من باب تعريف الجنس ومعناه الاشارة الى مايعرفه كل أحد عن الحمد ما هو ؟ .

ويقول : ان من جعلوا التعريف من باب الاستغراق وهم منهم (١١) .

وقد يحمل الزمخشري التعريف على الاحاطة والشمول فيفيد الاستغراق ومع أنه أيضا للجنس كما في كلمة الكتاب في آية البقرة ( ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، فقد قال : ( ان الكتاب يصح أن يراد به جنس كتب الله (١٢) وجعل التعريف في آية ( ذلك الكتاب لا ريب فيه للدلالة على أنه ( الكتاب الكامل ) (١٣) أو بعبارة أخرى للدلالة على حقيقة الجنس وأنه هو الذي يمثل الكتاب حقا ، وفي تعريف الذكر والأنثى في آية آل عمران : ( قالت رب اني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ) يقول اللام فيهما للعهد .

وقد ذكر عبد القاهر جملة الحال الاسمية والفعلية ومتى تقترن بالواو ومتى تستحب ومتى تمتنع وترى الزمخشري يتابع عبد القاهر في الأصل في الجملة الحالية الاسمية أن تقترن بالواو الا أن تبدأ بحرف مثل كان ، يقول تعليقا على آية الأعراف : ( وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بيانا أو هم قائلون ) ، ان الواو حذفت عن قوله ( أو هم قائلون ) استثقالا لاجتماع حرفي العطف ، لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل ، وعد سقوط الواو من مثل : جاءني زيد وهو فارس حثيثا ، كأنه يؤثر ذكر الواو وآثر في هذا التعبير ان حذفت منه الواو أن يقال : جاءني زيد فارسا . وكان عبد القاهر يرى امتناع حذف الواو فيه .

ويستغل الزمخشري كل ما كتبه عبد القاهر في الدلائل من قواعد الفصل والوصل بين الجمل بالواو فنراه يقف عند قوله تعالى [ والذين يؤمنون بما أنزل اليك ] فيقول : انه وسط العاطف بين هذه الجملة

وسابقتها كما يوسط بين الصفات في قولك : هو الشجاع والجواد ، وجعل قوله جل شأنه ( الذين يؤمنون بالغيب ) بعد قوله : هدى للمتقين كأنه اجابة لسائل سأل فقال : مابال المتقين مخصوصين بالهدى فوقع قوله ( الذين يؤمنون بالغيب )الى سابقه كأنه جواب لهذا السؤال المقدر (١٤) ويلاحظ أن هذا النوع يجيء تارة باعادة صفته كقولك أحسنت الى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك ، فيكون الاستئناف باعادة الصفة أحسن وأبلغ لانطوائها على بيان الموجب ، وتلخيصه ، وهكذا يتابعه في الوصل وبعض التعبيرات الدقيقة كالنفي والتنكير والقصر والاسناد الخبري والخبر والانشاء ولن يتسع المقام للاستشهاد ٠

واذا كان المؤلف الكبير علما من أعلام العربية الفاهمين لدقائق نحوها وصرفها ولغتها والمتمكنين من أسرار أساليبها العريقة وخفايا تراكيبها العميقة ، فان النص القرآني باعتباره أفصح نص عربي يقرأ قد وجد من من بصيرته النيرة أشعة كاشفة لا يملكها غير الأفذاذ من الموهوبين وقد أخذت هذه الأشعة الثاقبة تتناول النص الشريف من شتى نواحيه فتقف عند الحرف في الكلمة والكلمة في الآية والآية في السورة وقوف من ملك موازين البيان ، فجعل لكل حرف وزنه وتقديره واستشف لكل كلمة ايحاءها وظلالها كالخط ما يخفى عن غيره من وسائل التماسك القوية في السياق المحكم المكين وقد عبر عن ذلك كله تعبيرا ترك صداه المجلجل لدى من تلاه حتى اضطر مخالفوه في الاعتزال الى أن يتغاضوا عما ينفرج بينهم وبينه من مسائل الخلاف ، وليفرغوا الى التمتع بما اهتدى اليه من أسرار البيان القرآني صياغة البيان القرآني صياغة وتفكيرا ومنهجا اذ أن أكثر ما اهتدى اليه في ذلك نادر ثمين ٠ ولن نسوق القول دون تدليل فأمامنا الكشاف مليئا بكل ما نبتغيه ، واذا كان غير الكشاف قد حفل بأسرار الحروف النحوية في سياقها القرآني من عطف وجزم وجر ونصب ونفي واستفهام ونداء فان من تقدم الزمخشري في هذا المضمار كسيبويه والفراء والزجاج والمبرد وابن درستويه وأبي علي الفارسي وابن جنى وغيرهم ممن ذكرهم صاحب الكشاف قد أمدوه بما لم يعد غريبا على القراء ولذلك نترك التمثيل لبعض مابرع فيه الزمخشري خاصا بمعاني الحروف واختلاف المدلول التركيبي بابدال شيء منها مكان شيء ؛ لأن ذلك مما لا يعز نظيره منتقلين الى الكلمات فالجمل فالآيات حيث يعرض من نماذجها الرائعة كل مبدع خلوب ٠٠ !

لقد وقف الزمخشري أمام الألفاظ القرآنية وقفات من تغلغل الى باطن أسرارها تغلغلا يكشف المجهولات من الدقائق فأنت تراه مثلا في الآية

الكريمة ( الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ) (١٥) اقشعر الجلد اذا تقبض تقبضا شديدا وتركيبه من حروف القشع وهو الآديم اليابس مضموما اليه حرف رابع وهو الراء فيكون رباعيا ودالا على معنى زائد يقال : اقشعر جلده من الخوف وقف شعره وهو مثل في شدة التخويف فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل وتصويرا لافراط خشيتهم وأنه يريد التحقيق ولا نجد كلاما سبق به المؤلف في تحليل لفظة اقشعر وبنائها التركيبي واضافة الراء الى المادة الثلاثية لتصير رباعية يتم بها التأثير مما يدل على أن الرجل يكشف للكلمات أسرارا لا تكاد تبين ، وهو بعد شديد الحساسية بموقع اللفظ القرآني من سياقه ، فاذا تعرض لقول الله عز وجل عن زلزلة الساعة ( يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ) أخذ يوازن بين كلمتي مرضعة ومرضع فيقول : فان قلت : لم قيل مرضعة دون مرضع ، قلت : المرضعة التي هي في حال الارضاع ملقمة ثديها الصبي ، والمرضع من شأنها أن ترضع وان لم تباشر الارضاع في حال وصفها به فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة (١٦) وهي موازنة بارعة تنبىء عن معدن هذا الصيرفي الدقيق وتنطسه في تقدير الألفاظ وتحديد المعاني وفق مايتطلبه السياق ، ولندع هذا المثال الى مثال ثالث تجده لدى الزمخشري عند تفسير قوله تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » اذ يوازن بين كلمتي العوج بكسر العين وهي ماجاءت في النص القرآني والعوج بفتح العين فيقول (١٧) فان قلت قد فرقوا بين العوج بالكسر في المعاني والعوج في الأعيان ، والأرض عين فكيف صح منها المكسور العين قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ مايكون وذلك أنه لو عمدت الى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي ، فنفى الله عز وجل ذلك عوض الذي دق ولذ ولطف عن الادراك اللهم الا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقرير والهندسة وذلك الاعوجاج لما لم يدرك الا بالقياس دون الاحساس لحق بالمعاني فقيل عوج بالكسر ٠

ولا أظن ـ الا في القليل ـ دقة لغوية تفوق هذه الدقة الألمية لدى صاحب هذا التحليل البصير ، واذا كانت الثلاثة السابقة في الكلمات المفردة فهاهي ذي ثلاثة مواضع أخرى تبين كيف تذوق الزمخشري موضع الجملة من الآية كما تذوق فيما سبق موضع اللفظ من الجملة ، ونبدأ بقول الله عز وجل ( والله أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ) (١٨) حيث قال الزمخشري : فان قلت : لم جاء « فتثير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ، قلت ليحكي الحال التي يقع فيها اثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة البديعة للدلالة على القدرة الربانية · وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب ، قال تأبط شرا :

باني قد لقيت الغول تهوى
بسهب كالصحيفة صحصحان

فاضربها بلا دهش فخرت
صريعا لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم اياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول وثباته على كل شدة ، وكذلك سوق السحاب الى البلد الميت واحياء الأرض بالمطر بعد موتها كانا من الدلائل على القدرة الباهرة فقيل فسقنا وأحيينا معدولا بهما من لفظ الغيبة الى ما هو داخل في الاختصاص ، ففي هذا المثال أوضح المفسر كيف وقع المضارع لعلة بلاغية أحسن شرحها والاستشهاد لها كما أوضح موقع المضارع مكان الماضي في أمثلة أخرى نختار منها قوله تعالى : ( ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ان الله لطيف خبير ) (١٩) فان قلت هلا قيل فأصبحت ولم صرف الى لفظ المضارع قلت لنكتة فيه وهي افادة بقاء المطر زمانا بعد زمان كما تقول : أنعم على فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكرا ، ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع هذا الموقع ، وهو كلام من الوضوح بحيث يغني عن كل تعليق ، أما المثال الثالث فنختاره من قول الله تعالى ( هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا (٢٠) ·

حيث قال الزمخشري فان قلت : أي فرق بين وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم وبين النظم الذي جاء عليه ؟ قلت في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها اياهم وفي تصيير ضميرهم اسما واسنادَ الجملة دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي بأحد يتعرض اليهم أو يطمع في معازتهم وليس ذلك في قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم ، وهو قول تجد له في تفسير الكشاف نظائر كثيرة ذات تدليل محكم وتعليل دقيق .

ويؤيد هذا الاتجاه صاحب ( القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٢١) فيقول : فمن منهجه في الدراسة النحوية ما يأتي : ـ

النظر من خلال الدراسة النحوية الى الذوق الأدبي والأسلوب البلاغي بغض النظر عن تقديرات النحاة ( ويفهم من هذا أنه يعنى بالمعنى لا بصناعة الاعراب ) واستشهد على ذلك بقوله : ( يقول في قوله تعالى : « هدى للمتقين » (٢٢) ومحل هدى للمتقين الرفع ؛ لأنه خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر مع لا ريب . منه ( ذلك ) أو مبتدأ اذا جعلها لظروف المقدم خبرا عنه ، ويجوز أن ينصب على الحال والعامل فيه معنى الاشارة أو الظروف ثم قال :

والذي هو أرسخ عرفا في البلاغة يضرب عن هذه المحال صفحا وان يقال : ان ذلك قوله : ( الم ) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، و ( ذلك الكتاب ) جملة ثابتة و ( لا ريب فيه ) و ( هدى للمتقين ) رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حروف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية ، آخذا بعضها بعنق بعض (٢٣) .

وفي موطن آخر يقول في قوله تعالى ( صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ) .. ونحن له عابدون عطف على آمنا بالله وهذا العطف يرد قول من زعم أن صبغة الله بدلٌ من ملة ابراهيم أو نصب على الاغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من ذلك النظم واخراج الكلام عن التئامه واتساقه وانتصابهما على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه ، والقول ماقالت حذام (٢٤) ، ويجرى في معظم تناوله للنحو في القرآن مجرى مذهب البصريين ففي الآية الكريمة : ( وقالوا مهما تأتينا به من آية (٢٥) يصف مذهب البصريين بالسداد ولا يكتفي بذلك ، بل يشيد بكتاب سيبويه ولا يقتنع بهذه الاشارة بل يوجب الجثو بين يدي الناظر في كتاب سيبويه (٢٦) .

وكل هذا جميل من صاحب القرآن وأثره في الدراسات النحوية ٠٠ ولكني أجد التناقض بين كلامه عند التحدث عن منهج الزمخشري في دراسة النحو القرآني : اذ يقول بعد أن تحدث عن نظره من خلال الدراسة النحوية الى الأسلوب البلاغي بغض النظر عن تقديرات النحاة وعن جريانه على مذهب البصريين وسيبويه الذي قدمنا أكثر من مرة في أكثر من موضع أنه كان يراعي جانب المعنى ، يقول في البند الثالث : ان من منهجه اللجوء الى ظاهر اللفظ وقوانين الاعراب واهمال المعنى متابعا في ذلك ماذكره الامام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري المالكي صاحب ( الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ) ٠

والباحث يجب أن يبني رأيه على الاحصاء والاستقصاء والموازنة ويغلب جانبا على جانب لا أن يلقي القول على هواهنه ويتناقض مع نفسه ، واذا كنا قد وافقنا ابن المنير على اعتراضه فيما ألف كتابه الانتصاف فيه وهو الرد على الآراء الاعتزالية فلسنا معه في هذا الحكم على الزمخشري الذي تحدثنا عنه في صفحات عدة من هذا البحث في مراعاة المعنى ، ولننقل ما ذكره الدكتور عبد العال سالم مثبتا به لجوء الزمخشري الى ظاهر اللفظ وقوانين الاعراب مهملا جانب المعنى ٠ « قال الزمخشري في قوله تعالى : ( ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا ) (٢٧) ٠ لما ذكر في الرأي قبلها تثبطهم عن القتال واظهارهم الطاعة أو اضمارهم خلافها ، ولم يسكت ابن المنير صاحب الانتصاف بها من الكتاب عن هذا التوجيه فقال : وفي تفسير الزمخشري هذا نظر وذلك أنه جعل الاستثناء من الجملة التي وليها الى الايمان ، ومن اتباع الشيطان الى عصيانه وخزيه وليس لله عليه في ذلك فضل ، ومعاذ الله أن يعتقد ذلك ، وبيان لزوم أن لولا حرف امتناع لوجود وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان فاذا جعلت الاستثناء من الجملة الأخيرة فقد سلبت تأثير فضل الله في امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ضرورة ، وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالايمان وعصيان الشيطان الداعي الى الكفر بأنفسهم لا بفضل الله ومن المحال أن يعتقد موحد مسلم أنه عصم في شيء من الأشياء من اتباع الشيطان الا بفضل الله تعالى عليه ٠

وقد ادعى ابن المنير أن ماقاله الزمخشري مخالف لقواعد أهل السنة الذين يجعلون الطاعة والمعصية مخلوقة لله ، ومذهب المعتزلة الذين يجعلون الانسان خالقا طاعته وأن فضل الله منسحب على ذلك لأنه خلق له القدرة التي بها خلق العبد ذلك ودفعه لارادة الخير ، ويخلص من ذلك ابن المنير

قائلا : ( فقد وضح لك تعذر الاستثناء من الجملة الأخيرة على تفسير الزمخشري ، وما أراه الا واهما مسترسلا على المألوف في الاعراب وهو اعادة الاستثناء الى مايليه من الجمل مهملا النظر في المعنى ) (٢٨) ٠

وأقول والله أعلم ردا على ابن المنير:علم الله سبحانه في الأزل أن قليلا منهم سوف لا يتبعون الشيطان وذلك بفضل الله فلم يشملهم الخطاب ضمن هؤلاء الذين عصمهم الله بفضله من اتباع الشيطان والعلم سابق على الارادة وحينما جاء وقت اغراء الشيطان اختارت ارادته سبحانه ألا يتبع هؤلاء الذين شملهم الخطاب اتباع الشيطان بالكفر بل كانوا في صفوف المسلمين يؤيدون الدعوة والا اتباعا قليلا لا يوصل الى الكفر كاذاعة أخبار الحرب في هذه السرية كما حدث في غزوة بدر من أبي لبابة اذا علم قريشا باعداد النبي لقتالهم لأن أمواله وأهله عندهم فأراد أن يتخذ عندها يدا ، وكما اتبع آدم الشيطان من الأكل من الشجرة ( فعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ) وأنا أستبعد من عقلية متفتحة كعقلية الزمخشري ان يكون تأويل ابن المنير مقصودا له أو أنه جاهل معنى لولا ، وأنها حرف امتناع لوجود ، أو أنه لم ينظر الى المعنى حينما أعرب هذا الاعراب وهذا التفسير الذي ذكرته في الشق الثاني ، الا اتباعا قليلا لا يتعارض مع تفسير امامنا الزمخشري رحمه الله ، فقد أشرت اليه مؤولا كلامه كما أنه يتفق مع تفسير بعض المحدثين ( كان بعض المسلمين اذا بلغهم خبر أو سرية أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم للغزو أو نحوه وعلموا أن هذه السرية قد أمنت من أعدائها وانتصرت عليهم أو خيف عليها منهم أفشوا ما علموه وانطلق لسانهم بالكلام فيه خفة وطيشا فيتأذى من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يليق بالدهماء أن يذيعوا أخبار الحرب وأسرارها ويخوضوا في أمورها وسياستها فان الحرب خدعة ويجب ترك شئونها للرؤساء والقادة ولو سكتوا ولم يذيعوا ما علموه ولم يحدثوا به أحدا حتى يكون رسول الله وأولو الأمر من أهل الراي والمشورة من كبار الصحابة هم الذين يذيعون مايرون اذاعته لعلم تلك الأخبار من يبحثون عنها ويهمهم أمرها من مصادرها الصحيحة ، ولولا تفضل الله عليكم أيها المسلمون بالعفو عنكم ورحمته بما هداكم اليه من طاعته لاتبعتم وسوسة الشيطان فأفسدتم على الأمة سياستها وخرجتم عن حدود الدين الا قليلا من أصحاب البصائر النافذة والعقول الراجحة (٢٩) ٠

وانني مع مؤلف ( منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه ) (٣٠) ٠

اذ ذكر مؤلف هذا الكتاب أن الزمخشري ( حين يعرض للقرآن من الوجهة الاعرابية لا ينساق وراء صناعته النحوية فيتحيف جانب المعنى وانما يجعل رائده المعنى حيثما كان هناك تقدير اعرابي فنراه يبين الأحكام النحوية وما وراءها من فروق معنوية فهو يعالج النحو القرآني من الناحية التي تخدم تفسير القرآن وتنسق معانيه (٣١) مستدلا بقول الله سبحانه في الآية الكريمة ( وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يبصرون ) (٣٢) مناقشا : لم رفعت ( ينصرون ) ؟ ولم لم تجزم ؟ وتأثر المعنى في الحالتين ثم يبين علام عطفت ( ينصرون ) ؟ ليدرجها في نسقها المعنوي ، يقول : فان قلت : هلا جزم المعطوف في قوله ( ثم لا ينصرون ) ؟ قلت : عدل به عن حكم الجزاء الى حكم الاخبار ابتداء كانه قيل : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون · فان قلت : فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى ؟ قلت لو جزم لكان نفي النصر مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وحين رفع كان نفي النصر وغدا مطلقا كانه قال ثم شانهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصرة والقوة لا ينهضون بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر عن حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر فان قلت : فما الذي عطف عليه هذا الخبر ؟ قلت جملة الشرط والجزاء كانه قيل أخبركم أنهم ان يقاتلوكم لم ينهزموا ثم أخبركم انهم لا ينصرون ) (٣٢) · وقد تمتد رعاية الزمخشري للنسق المعنوي في الآية الواحدة الى رعايته للتناسب المعنوي في القرآن كله في الآية ( وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ) (٣٣) ·

ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب والكلام مع رد الضمير الى المنزل أحسن ترتيبا . وذلك أن الحديث في المنزل ، لا في المنزل عليه وهو مسوق اليه ومربوط به فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير الى غيره · الا ترى أن المعنى : وان ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم مما يماثله ويجانسه وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال : ( وان ارتبتم في أن محمدا منزل عليه فهاتوا قرآنا من مثله ولأنهم خوطبوا جميعا وهم الجم الغفير بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم كان أبلغ في التحدي من ان يقال لهم : ليأت واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد ولأن هذا التفسير هو الملائم لقوله تعالى ( وادعوا شهداءكم ) (٣٤) ·

ان المعاني القرآنية وتناسقها يضعها الزمخشري نصب عينيه حينما يعرض لحكم اعرابي يقول عن الآية : ( ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم

يهتدون ) (٣٥) أي قوم موسى التوراة لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها كما قال ( على خوف من فرعون وملئهم (٣٦) يريد آل فرعون وكما يقولون هاشم وثقيف وتميم ويراد قومهم ولا يجوز أن يرجع الضمير في ( لعلهم ) الى فرعون وملئه ، لأن التوراة انما أوتيها بنو اسرائيل بعد اغراق فرعون وملئه : ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى (٣٧) ، وفي الآية ( ولا تقولوا ثلاثة (٣٨) يقول ( ثلاثة ) خبر مبتدأ محذوف فان صحت الحكاية عنهم أنهم يقولون هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم : اقنوم الأب ، واقنوم الابن واقنوم روح القدس ، وانهم يريدون باقنوم الأب الذات واقنوم الابن العلم واقنوم روح القدس الحياة ·

فتقديره : الله ثلاثة والا فتقديره الآلهة ثلاثة ، والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة وان المسيح ولد الله من مريم ألا ترى الى قوله : ( أانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله ) ( وقالت النصارى المسيح ابن الله ) والمشهور والمستفيض عنهم أنهم يقولون في المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم ويدل عليه قوله ( انما المسيح عيسى ابن مريم ) لما ثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتها وأن اتصاله بالله تعالى من حيث انه رسوله وانه موجود بأمره وابتداعه جسدا حيا من غير أب ، فنفى أن يتصل به اتصال الأبناء بالآباء ، وقوله سبحانه أن يكون له ولد ، وحكاية الله أوثق من حكاية غيره ، وما قيل من روايات قصصية من الحجر المضروب بعصا موسى يفرزها الزمخشري الى قسمين يستتبع كل قسم حكم اعرابي وما عرض للنحو هنا الا أنه يخدم تفسير الآية فيقول في الآية ( اضرب بعصاك الحجر ) (٣٩) الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل اذ رموه ( بالأدرة ) ففر به فقال له جبريل : يقول الله تعالى : ارفع هذا الحجر فان لي فيه قدرة ولك فيه معجزة فحمله في مخلاته ، واما للجنس أي ضرب الشيء الذي يقال له الحجر · وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجرا بعينه قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة ، وروى أنهم قالوا : كيف لنا لو أفضينا الى أرض ليست فيها حجارة فحمل حجرا في مخلاته فحيثما نزلوا القاه · وقيل كان يضربه بعصاه فيتفجر ويضربه بها فييبس فقالوا : ان فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى اليه لا يقرع الحجارة وكلمها تطعك لعلهم يعتبرون ) · فالنحو عنده خادم للمعنى · يقول الزمخشري في الآية : ( يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ) اذا حضر ظرف للشهادة وحين الوصية بدل منه وفي ابداله منه دليل على وجوب الوصية وأنها من الأمور اللازمة التي ينبغي أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها (٤٠)

فاذا أخل الحكم الاعرابي بالمعنى رفض ، فعند الآية الكريمة : ( والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٤١) يقول : وأجاز الفراء أن يكون ( بين ذلك ) اسم كان على أنه مبني لاضافته الى غير متمكن كقوله :

لم يمنع الشرب منها غير ان نطقت

وهو من جهة الاعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس بقوي ؛ لأن مابين الاسراف والتقتير قوام لا محالة ، فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة ، ويعرب الآية ( ذلكم الله ربكم له الملك ) فيقول : ( ذلكم ) مبتدأ ( والله ربكم له الملك ) أخبار مترادفة أو ( الله ربكم ) خبران و ( له الملك ) جملة مبتدأة واقعة في قرآن ، قوله ( والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ) (٤٢) ، ويجوز في حكم الاعراب ايقاع اسم الله صفة لاسم الاشارة أو عطف بيان وربكم خبرا ، لولا أن المعنى يأباه ، ولعل رفض هذا الوجه الاعرابي لما يجره من الاشارة الى لفظ الجلالة ٠

لذلك ينأى الزمخشري بالقرآن عن تعسف التأويلات النحوية التي لا يفيد التفسير القرآني منها محصولا ففي الآي ( انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد ٠ لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب ) ٠

يقول : ان قلت هل يصح قول من زعم أن أصله لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت في قولك : حبتك أن تكرمني فبقي أن لا يسمعوا فحذفت ( أن ) واهدر عملها كما في قول القائل :

ألا ايهذا الزاجري احضر الوغى

قلت كل واحد من هذين الحرفين غير مردود على انفراد فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب (٤٣) ٠

والزمخشري يستغل النحو في الدفاع عن القرآن والنضح عن طاعنين يرون فيه مالا يضطرد والقاعدة النحوية ـ في سلامتها واضطرادها على وتيرة واحدة ٠ يقول الزمخشري : في الآية ( لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة ) (٤٤) المقيمين نصب على المدح لبيان فضل الصلاة وهو باب واسع وقد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد لا يلتفت الى ما زعموا من .وقوعه لحنا في خط

المصحف ، وربما التفت من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان وبنى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم ومثلهم في الانجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الاسلام وزب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله كلمة ليسدها من بعدهم وخرقا يرفوه من يلحق بهم ·

وهذه الأراء النحوية نجدها مبثوثة في كتاب الكشاف ، لأننا عرفناه مؤلف كتب النحو التي منها ( المفصل ) وكان كلفا به بصيرا بدقائقه ولهذا تعرض كثيرا للاعراب في تفسيره فأعرب كلمات وأورد آراء النحاة في اعراب كلمات وناقش الأعاريب واختار ما رآه أصح وأصوب وكثيرا ما كان يمثل بالنصوص الأدبية وهذه أمثلة من الآيات الكريمة التي يتعرض فيها للنحو ·

**١ ـ شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط (٤٥)**
قال : ان قائما منصوب على الحال من لفظ الجلالة فان قلت : لم جاز افراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه ولو قلت جاءني زيد وعمرو راكبا لم يجر ؟ قلت : انما جاء هذا لعدم الالباس كما جاز في قوله تعالى ( ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة (٤٦) أن انتصب ( نافلة ) حالا من يعقوب ، ولو قلت جاءني زيد وهند راكبا لجاز لتميز الحال بالذكورة ، ويجوز أن يكون ( قائما ) منصوبا على المدح · فان قلت : أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة كقولك : الحمد لله الحميد بفتح الدال ، وانا معشر ـ بفتح الراء ـ الأنبياء لا نورث ؟ قلت : قد جاء نكرة كما جاء معرفة وانشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي :

**ويأوى الى نسوة عطل**
**وشعثا مراضيع مثل السعالي**

فان قلت : هل يجوز أن يكون صفة للمنفي كأنه قيل : لا اله قائما بالقسط الا هو ؟ قلت : لا يبعد : فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف · فان قلت : قد جعلته حالا من فاعل ( شهد ) فهل يصح أن ينتصب حالا من هو في ( لا اله الا هو ) ؟ قلت : نعم ، لأنها حال مؤكدة ، والحال المؤكدة لا تستدعي أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها ، كقولك أنا عبد الله شجاعا ، وكذلك لو قلت لا رجل الا عبد الله شجاعا وهو أوجه من انتصابه من فاعل ( شهد ) وكذلك انتصابه على المدح (٤٧) ·

٢ ـ ( ذلكم الله فأني تؤفكون ، فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ) فالنصب على اضمار فعل دل عليه جاعل الليل أي وجعل الشمس والقمر حسبانا ، أو يعطفان على محل الليل .

فان قلت كيف يكون لليل محل والاضافة حقيقية لأن اسم الفاعل المضاف اليه في معنى المضي ولا تقول زيد ضارب عمرو أمس ؟ قلت ما هو في معنى المضي وانما هو دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة وكذلك فالق الحب وفالق الاصباح كما تقول : الله قادر وعالم فلا تقصد زمانا دون زمان .

والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره ، والشمس والقمر مجعولان حسبانا أو محسوبان حسبانا ومعنى جعلهما حسبانا أن حساب الأوقات يعلم بدورهما وسترهما .

٤ ـ ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون في آياتنا مالهم محيص ، فان قلت فما وجوه القراءات الثلاث في ( يعلم ) ؟ .

قلت أما الجزم فعلى ظاهر العطف ، وأما الرفع فعلى الاستئناف ، وأما النصب فالعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ، ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ، منه قوله تعالى ( ولنجعله آية للناس ) (٤٩) .

وقوله تعالى ( وخلق السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت ) (٥٠) .

وأما قول الزجاج : النصب على اضمار ( أن ) لأن قبلها جزاء ، نقول : ما تصنع أصنع مثله واكرمك وان شئت واكرمك بالرفع وانا اكرمك ، وان شئت واكرمك جزما فمنه نظر لما أورده سيبويه في كتابه اذ قال : واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله ان تأتني آتك وأعطيك ضعيف ، وهو نحو من قوله : والحق بالحجاز فأستريحا فهذا يجوز ، وليس بحد الكلام ولا وجهه الا أنه في الجزاء صار أقوى قليلا ، لأنه ليس بواجب أنه يفعل الا أن يكون من الأول فعل ، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام أو نحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه .

ثم عقب الزمخشري بقوله ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة .

٤ ـ فلولا كان من القرون من قبلكم أو لو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ، (٥١) فهلا كان وقد حكوا عن الخليل أن كل ( لولا ) في القرآن معنا ( هلا ) الا التي في سورة الصافات (٥٢) ولكن هذه الحكاية غير صحيحة لأن ( لولا ) وردت في سورة أخرى وليس معناها ( هلا ) مثل قوله تعالى : ( لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ) (٥٣) وقوله ( ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ) (٥٤) .

٥ ـ وقال الملك اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات (٥٥) .

فان قلت هل من فرق بين ايقاع سمان صفة للتمييز وهو بقرات دون المميز وهو سبع وأن يقال بقرات سمانا ؟ .

قلت : اذا أوقعتها صفة لبقرات فقد قصدت الى أن تميز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ثم رجعت ووصفت المميز بالجنس بالسمن . فان قلت : هلا قيل سبع عجاف على الاضافة ؟ .

قلت : التمييز موضوع لبيان الجنس والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده ، فان قلت فقد يقولون ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب ؟ .

قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها مالم يجز في غيرها ، ألا تراك لا تقول عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ ، فان قلت ذلك مما يشكل وما نحن بسبيله لا اشكال فيه ، ألا ترى أنه لم يقل سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف .

والعجف : الهزال الذي ليس بعده ، والسبب في وقوع عجاف جمعا لعجفاء ، مع أن أفعل وفعلاء لا يجمعان على فعالة مجملة على سمان ؛ لأنه نقيضه ، ومن رأيهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض .

٦ ـ ( هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا ) ( ٥٦ ) .

لا يصح أن يكون ( خوفا وطمعا ) مفعولا لهما لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل الا على تقدير حذف المضاف أي ارادة خوف وطمع أو على معنى

اخافة اطماعا ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع أو على ذا خوف أو وذا طمع أو من المخاطبة – أي خائفين وطامعين .

٧ – لا أقسم بيوم القيامة (٥٧) قال رحمه الله : ادخال ( لا ) النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس :

**لا وأبيك ابنة العامري**

**لا يدعى القوم أني أفر**

وقال عزية بن سلمى :

**ألا نادت أمامة باحتمال**

**لتحزنني فلا بك ما ابالي**

وفائدتها تأكيد القسم وقالوا انها صلة ( زائدة ) مثلها في ( لئلا يعلم أهل الكتاب ) وفي قوله : في بئر لا حور سرى وما شعر (٥٨) .

واعترضوا عليه بأنها انما تزاد وسط الكلام لا في أوله وأجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض .

والاعتراض صحيح ؛ لأنها لم تقع مزيدة الا في وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد ألا ترى الى امرىء القيس كيف زادها في مستهل قصيدته ؟ والوجه أن يقال : هي للنفي والمعنى أنه لم يقسم بالشيء الا اعظاما له يدلك عليه قول الله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم » فكأنه بادخال حرف النفي يقول : ان اعظامي له باقسامي به كل اعطام بمعنى أنه يستأهل فوق ذلك .

وقيل ان ( لا ) نفي للكلام ورد له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل : لا ، أي ليس الأمر كما ذكر ثم قيل أقسم بيوم القيامة .

فان قلت قوله تعالى ( فلا وربك لا يؤمنون ) والأبيات التي أنشدتها المقسم عليه فيها منفي فهلا زعمت أن ( لا ) قبل القسم زيدت موطئة للنفي ومؤكدة له وقدرت المقسم عليه المحذوف ها هنا منفيا كقولك : لا أقسم بيوم القيامة ولا تتركون سدى ، قلت لو قصر الأمر على النفي دون الاثبات

لكان لهذا القول مساغ ولكن لم يقصر ألا ترى كيف نفى لا أقسم بهذا البلد بقوله : لقد خلقنا الانسان في كبد وكذلك فلا أقسم بمواقع النجوم بقوله : انه لقرآن كريم ٠

وقرىء ( لأقسم ) على أن اللام للابتداء وأقسم خبر مبتدأ محذوف معناه لأنا أقسم قالوا ويعضده أنه في المصحف الامام بغير ألف ٠

٨ ـ ومن ذلك ما قاله الزمخشري في تعديه الفعل ( يعدو ) بعن في قوله تعالى ( ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا (٥٩) يقول الزمخشري : يقال : عداه اذا جاوزه ومنه قولهم : عدا طوره وجاءني القوم عدا زيدا وانما عدى بعن لتضمن عدا معنى بناء على في قولك نبت عنه عينه علت عنه عينه اذا أقحمته ولم تعلق به ، ويسأل الزمخشري قائلا : أي غرض في هذا التضمين ؟ وهلا قيل ولا تعدهم عيناك أو ولا تعل عيناك عنهم أو يجيب : الغرض فيه اعطاء مجموع معينين وذلك أقوى من اعطاء معنى فذ ، ألا ترى كيف رجع المعنى الى قولك ولا تقتحهم عيناك مجاوزين الى غيرهم ؟ ونحوه قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ولا تضموها اليها آكلين لها ٠

٩ ـ ويقول الزمخشري في الآية الكريمة ( قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى ) (٦٠) ويجيب جعلوا مكانا للمودة ومقرا لها كقولك لي في آل فلان مودة ولي فيهم هدى وحب شديد تريد أحبهم وهو مكان حبي ومحله وليست في بصلة للمودة كالكلام اذا قلت الا المودة ثابتة في القربى ٠

١٠ ـ وفي قوله تعالى ( وفجرنا الأرض عيونا (٦١) يقول الزمخشري : ان المعنى جعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر وهو أبلغ من قولك وفجرنا عيون الأرض ٠

ومثله في النظم ( واشتعل الرأس شيبا ) وهو يشير بذلك الى ماوضحه عبد القاهر من مزايا النظم في هاتين الآيتين بادئا بقوله تعالى ( واشتعل الرأس شيبا ) (٦٢) ٠

فهو يقول : فالمزية الجليلة في هذا لا ترجع الى مجرد الاستعاذة ولكنها ترجع الى المجىء بالاستعارة على طريق مايسند فيه الفصل الى الشيء وهو في المعنى لما هو سببه فيرتفع بالفعل مايسند اليه ويؤتى بالذي له الفعل منصوبا مبينا أن ذلك الاسناد وتلك النسبة الى ذلك الأول انما كان من أجل الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم طاب زيد نفسا

وقر عمرو عينا وتصبب عرقا وكرم أصلا وحسن وجها وأشباه ذلك مما نجده في الفعل فيه منقولا عن الشيء الى ما ذلك الشيء من سببه وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى وان كان هو للرأس في اللفظ كما أن طاب للنفس وقر للعين وتصبب للعرق وان أسند الى ما أسند اليه ، والسر في بلاغة النظم الذي جاءت عليه استعارة ( اشتعل ) للشيب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول وأنه شاع فيه وأخذه من نواحيه وأنه استقر فيه وعم جملته حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه الا ما لايعتد به وهذا ما لا يكون اذا قيل اشتعل الرأس أو الشيب في الرأس بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره في الجملة ثم ينتقل عبد القاهر الى الآية الأخرى فيقول : ونظير ذلك في التنزيل قوله عز وجل ( وفجرنا الأرض عيونا ) فالتفجير للعيون في المعنى وأوقع على الأرض في اللفظ كما أسند هناك الاشتعال الى الرأس وقد أفاد ذلك معنى الشمول ها هنا كما استعير معتى الشمول هناك ذلك أنه قد أفاد أن الأرض وقد كانت صارت عيونا كلها وأن الماء قد كان يفور من كل مكان فيها ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل : وفجرنا عيون الأرض أو العيون في الأرض لم يفد ذلك ولم يدل عليه ولكن المفهوم منه أن الماء قد كان من عيون متفرقة في الأرض وتبجس من أماكن فيها .

ثم يقول عبد القاهر : واعلم أن ما في الآية ( واشتعل الرأس شيبا ) شيئا آخر من جنس النظم وهو تعريف الرأس بالألف واللام وافادة معنى الاضافة من غير اضافة وهو ما أوجب المزية ولو قيل : واشتعل الرأس فصرح بالاضافة لذهب بعض الحسن (٦٣) .

( لقد أثبت عبد القاهر أن معاني النحو تمثل العلاقات بين معاني الكلم في النفس والألفاظ تترتب في النطق ترتيبا يحكم فيه ترتيب المعاني ، فهناك نظم معنوي في النفس يقابله على اللسان نظم لفظي يتبعه تبعية مطلقة ويقتفي آثاره (٦٤) .

وبعد هذه الآيات البينات والدلائل الواضحات يبدو لنا واضحا أن الزمخشري رحمه الله كان يجعل النحو خادما للمعنى وكان اعرابه تابعا لمعانيه المشرقة التي تملأ النفس ضياء وهدى .

## الهوامش

١ ـ نشاة النحو للمرحوم الأستاذ محمد الطنطاوي ص ١٦١ .
٢ ـ أسرار البلاغة ص ٥ .
٣ ـ الكتاب لسيبويه طبعة بيروت ص ٥٦٤ .
٤ ـ خطوات التفسير للقرآن الكريم للدكتور محمد رجب البيومي سلسلة البحوث الاسلامية شوال ١٣٩١هـ ديسمبر ١٩٧١ الكتاب ٤٢ ص ٢٣٢ ومابعدها .
٥ ـ ص ٤ جـ ٣ الكشاف طبعة الحلبي سنة ١٩٤٨ .
٦ ـ سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣ .
٧ ـ سورة الشورى ٥٣ .
٨ ـ آخر سورة يس ٨٢ .
٩ ـ سورة هود ٨٨ .
١٠ ـ الكشاف ص ١١٢ جـ ١ .
١١ ـ ص ٤٠ ، ٤١ جـ ١ .
١٢ ـ ٢٥١ جـ ١ .
١٣ ـ ص ٨٥ جـ ١ ، ١ ص ٣٢٠ جـ ١ .
١٤ ـ ص ١٠٦ جـ ١ الكشاف .
١٥ ـ الكشاف ص ٢ ص ٢٩ سورة الزمر ٢٣ .
١٦ ـ ص ٣٤٠ جـ ٢ سورة الحج آية ٢ .
١٧ ـ ص ٣١٤ جـ ٢ سورة طه ١٠٥ ـ ١٠٧ .
١٨ ـ آية ٩ سورة فاطر ـ الكشاف ص ٥٧١ .
١٩ ـ الكشاف جـ ٢ ص ٣٥٣ سورة الحج آية ٦٣ .
٢٠ ـ الكشاف جـ ٣ ص ٢١٣ سورة الحشر آية ٢ .
٢١ ـ الدكتور عبد العال سالم مكرم .
٢٢ ـ الكتاب ص ٨٩ جـ ١ سورة البقرة آية ٢ .
٢٣ ـ ص ٩٢ و ٩٣ من الكشاف جـ ١ أول سورة البقرة .
٢٤ ـ البقرة آية ٨ ، ١٣ ص ٢٤٢ .
٢٥ ـ سورة الأعراف آية ١٣٢ ص ٥٦٩ جـ ١ .
٢٦ ـ القرآن وأثره في الدراسات النحوية ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .
٢٧ ـ النساء آية ٨٣ و ص ٤١٣ من الكشاف .
٢٨ ـ الانتصاف هامش الكشاف لابن المنير .
٢٩ ـ الجزء الخامس من تفسير القرآن الكريم حمزة وعلوان وبرانق ص ٥١ ، ٥٢ .
٣٠ ـ مصطفى الصاوي الحديني .
٣١ ـ منهج الزمخشري ص ١٦٧ جـ ١ طبعة دار المعارف .
٣٢ ـ الآية ١١١ من آل عمران ـ الكشاف ص ٣٤٢ .
الكشاف ص ٣٤٢ جـ ١ .
٣٣ ـ الآية ٢٣ من سورة البقرة .
٣٤ ـ ص ١٨٧ من الكشاف جـ ١ .
٣٥ ـ المؤمنون آية ٤٩ .
٣٦ ـ سورة يونس ٨٣ .
٣٧ ـ سورة القصص ٤٣ .
٣٨ ـ سورة النساء آية ١٧٦ والكشاف ص ٤٤٠ .

٣٩ ـ الآية ٦٠ من سورة البقرة الكشاف ص ٢١٨ .
٤٠ ـ الآية ١١٦ من المائدة ص ٤٨٧ .
٤١ ـ سورة الفرقان الكشاف جـ ٢ ص ٤١٥ آية ٦٧ .
٤٢ ـ سورة فاطر الآية ١٣ ـ الكشاف ص ٥٧٤ .
٤٣ ـ الكشاف جـ ٢ ص ٥٩٨ .
٤٤ ـ سورة النساء آية ١٦٢ وفي الآية يقول أبو عبيدة في المجاز ورقة ١٣٩ ـ العرب تخرج من الرفع اذا كثر الكلام الى النصب ثم تعود الى الرفع قال خريق :

لا يبعدن قومي الذين هم       سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك       والطيبون معاقد الأزر

٤٥ ـ سورة آل عمران ١٨ الكشاف جـ ١ ص ٣١٤ .
٤٦ ـ سورة الأنبياء آية ٩٢ .
٤٧ ـ الكشاف ص ٣١٤ .
٤٨ ـ سورة الشورى آية ٣٥ .
٤٩ ـ سورة مريم آية ٢٥ .
٥٠ ـ سورة الجاثية آية ٢٢ .
٥١ ـ سورة هود ١١٦ .
٥٢ ـ يريد قوله تعالى في شان يونس عليه السلام ( فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون ) سورة الصافات ١٤٢ ـ ١٤٤ .
٥٣ ـ آية ٤٩ ـ القلم .
٥٤ ـ الاسراء ـ ٧٤ .
٥٥ ـ سورة يوسف ٤٣ ـ الكشاف جـ ٢ ص ١٩٩ .
٥٦ ـ سورة الرعد ١٣ والكشاف جـ ٢ ص ١٦١ .
٥٧ ـ سورة القيامة آية ١ الكشاف جـ ٣ ص ٢٩١ .
٥٨ ـ قال ابن يعيش في شرح المفصل ١٣٦/٨ ان اطراد في بئر حور ولا مزيدة كذا فسره أبو عبيدة والحور : الهلكة .
٥٩ ـ الكهف ٢٨ والكشاف جـ٢ ص ٢٥٦ .
٦٠ ـ الشورى ٢٣ والكشاف جـ ٣ ص ٨١ .
٦١ ـ سورة القمر ١٢ والكشاف جـ ٣ ص ١٨٣ .
٦٢ ـ سورة مريم الآية ٤ .
٦٣ ـ دلائل الاعجاز ص ٢٩ ـ ٨١ .
٦٤ ـ النظم القرآني في الكشاف الزمخشري للدكتور درويش الجندي ص ١٣ ط دار نهضة مصر سنة ٦٩ .